حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود

"الحوار العقدي"

الدكتور
محسن محمد عبد الناظر
أستاذ مساعد قسم التفسير والحديث

قال الله تعالى : « أدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجَادِلْـهُمْ بالَّتي هي أحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هو أعْلَمُ بِمن ضَلَّ عن سَبِيلِهِ وهو أعْلَمُ بالْمُهْتَدِينَ » .

اتبع الرّسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله تعالىَ ، وفي نشر الدين الحنيف وفي الاقناع والبيان والارشاد والتعامل مع القضايا الطارئة هذه التوجيهات الالهية ، لذلك دخل في حوار مستمر تعدّدت اطرافه وتنوعت أهدافه .

ومن الذين حاورهم الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود . ومن القضايا التي أثيرت في هذا الحوار مايتصل بالعقيدة . فما المسائل التي سيطرت على الحوار العقدي الذي دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين اليهود ؟ وما الدوافع التي حركت المشاركين فيه ؟ وما الطرق التي اتبعت ؟ وما النتائج التي يمكن للبحث العلمي ان يستخلصها منه ؟ .

في هذه الدراسة محاولة للاجابة عن هذه الأسئلة .

والله ولي الوفيق .

نزل الدين الاسلامي على الرسول صلى الله عليه وسلم في بيئة غلب عليها الشرك . فجُلّ أفرادها قد جعلوا الله شركاء في خلق الكائنات وتصريف الامور . فكان من الطبيعي أن يبدأ بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين أفراد هذه المجموعة حوار وجدل نزل الوحي المتلو ببعضهما وصدر البعض الآخر عن صاحب الرسالة وحيا مروريا .

وفي أول البعثة لم يشارك أهل الكتاب من يهود ونصارى في هذا الجدل لأسباب موضوعية : من أهمها خلو المجتمع المكي من أصحاب الديانتين عموما ، والتشابه الموجود بين الدعوة الاسلامية وما كان عليه اليهود والنصارى من توحيد الربوبية . ومع انتشار الاسلام وخاصة عند انتقاله الى المدينة نشأت ظروف الحوار بين الديانات الثلاث . وخاصة بين المسلمين واليهود .

وجاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم حوار مع اليهود . اهتم بالجانب العقدى والتشريعى والأخلاقى وغيرها من الموضوعات . كما أوردت الأحاديث النبوية جانبا مهما من هذا الحوار الذى يمكن للبحث العلمي أن يستقرئه للوقوف على نشأته وأسبابها ، وموضوعاته وأبعادها ، ودوافعه وأهدافها ، وطرقه ومصادرها .

نشأة الحوار مع اليهود وأسبابها

أدرك مشركو مكة وجود بعض الشبه بين دين اليهود وما يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم من ترك عبادة الأوثان ومن قولٍ بأن الوحي يأتيه من السماء . فأرسلوا الى أحبار المدينة يسألونهم ، علّمهم يجدون عندهم ما يتغلبون به على الدعوة الجديدة .

أخرج الترمذى[1] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل : فقالوا سلوه عن الروح . قال فسألوه عن الروح فأنزل الله : ﴿وَيَسْألونَكَ عَنِ الروُحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾[2] فالمشركون ، وقد كانت لهم صلات بيهود المدينة الذين لم يدعوهم إلى ترك الشرك وعبادة الله الواحد الأحد ، ولم يحذّروهم مما هم عليه من وثنية ، استنجدوا باليهود ، وبذلك كان الحور الأول بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود . وهو حوار غير مباشر ، ذلك ان اليهود لم يلتقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يتلقّوا منه جوابا عن أسئلتهم بل تركوا ذلك للمشركين .

وبعد الهجرة النبوية أصبحت المدينة المنورة تضم مجموعتين عقديتين : المسلمين واليهود الى جانب بعض المشركين .

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينظم الحياة داخل المدينة المنورة تنظيما يأخذ بعين الاعتبار كثيرا من المعطيات . ولم يخف عليه ، صلى الله عليه وسلم ان مشاكل متعددة قد تنشأ بين سكان المدينة وقد تتسبّب في توترات ، كما لم يخْف عليه ان صراعا عقديا وجدلية موضوعية ودوافع بشرية ستحدث بين المجموعات المختلفة التي اصبحت تعيش في وسط جغرافي واحد ، وتتجاذبها دوافع فيها تجانس تارة وتنافر أخرى ، وحتى لا يتولد عن ذلك صراع فكرى يثير الحقد فلابد من توجيهات واضحة وقوانين محددة تمكن الافراد والجماعات من معرفة حقوقهم

---

(١) ت : ٤٨ تفسير القرآن ب ١٨ ـ انظر ايضا التحرير والتنوير ١٥/١٩٤

(٢) ١٧ الاسراء : ٨٥

وواجباتهم . ولذلك وضع الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدة تنظيمية يمكن القول بأنها عقد سياسي واجتماعي تنظيمي .

لقد كثر الجدل حول صحة هذه المعاهدة . ومما يلاحظ أن أغلب الذين رفضوها انطلقوا من أدلة شكلية ، كعدم ورودها في كتب الفقه والحديث الصحيح ، وكروايتها بدون اسناد من طرف ابن اسحاق وابن سيد الناس .[1]

ولا يسمح المقام بايراد أدلة الرافضين لهذه الوثيقة للرد عليها والتنبيه على تهافتها . فليس ذلك موضوع هذا البحث وقد تكفل بهذا العمل بعض الباحثين[2] ويكفي هنا أن نشير الى أن هذه المعاهدة تستجيب لظروف عقدية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، كانت عليها المدينة المنورة لمّا هاجر اليها الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد وجدت هذه الظروف رسولا كريما لا ينطلق عن هوى ولا يريد للانسانية إلّا الخير والطمأنينة والعدل والحياة المنظمة ، ولذلك دخل في حوار مع المجموعات التي يتكون منها المجتمع المدني توّج بعقد معاهدة صداقة تفسح المجال للتعايش السلمي بين الديانتين ، وتطبع الواقع الجديد بطابعها المتسامح المبني على قاعدة متينة من مواطن اللقاء الكثيرة المشتركة .[3]

وتتبع ما ورد في هذه الوثيقة يبيّن أنها ليست عملا فرديا ولا أوامر تسلطية ، فجانب التشاور والتحاور بارز في شكلها ومضمونها . فهى تهتم بالمهاجرين من قريش ومن اتصل بهم من العرب وغيرهم .. وهي تصنّف الانصار وتميز بين بطونهم وأفخاذهم ، وكذلك تفعل بالنسبة لليهود . ولا يتوقف أمر المعاهدة على حقوق وواجبات الأفراد والمجموعات الذين يقيمون في المدينة بل يتجاوزه ليبين حرمة المكان الذى تقيم فيه هذه المجموعات والعلاقات الخارجية التي يتقيّد بها سكان المدينة عند تعاملهم مع الأجانب عنها وخاصة قريش .

وعلى كلّ فالذى يُستنتج من هذه المعاهدة أنها عقدت بعد حوار وتشاور قاده الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشاركت فيه الأطراف التي ذكرت فيها .

لقد طبقت البنود الخاصة بالمهاجرين والأنصار تطبيقا سليما لم يزد المجموعتين الا ايمانا ووحدة

---

(١) فان فلوتن : الدولة العربية وسقوطها . ترجمة يوسف العش . انظر الحاشية ص ٢٠

(٢) انظر مثلا : محمد حميد الله : الوثائق السياسية ص ٥٧ وما بعدها . د . ضياء الدين العمرى : المجتمع النبوى فى عهد النبوة ص ١٠٩

(٣) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ص ١١٨

وقوة . أما التي تعود الى اليهود فلم يكن لها أن تؤتي أكلها ذلك ان اليهود وأحبارهم ناصبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين العداوة وأدركوا الخطأ الذى وقعوا فيه لّما لم يقاوموا الاسلام منذ الهجرة .

لقد كانوا يمّنون انفسهم بكثرة اليد العاملة عند قدوم المسلمين المهاجرين ، وكانوا يتوقعون أن تصبح المجموعة الجديدة التي حلت بالمدينة عنصرا من عناصر التوتر الذى يعتمده يهود المدينة للسيطرة على الثروة ولتصريف انتاجهم ولتحقيق السيولة المالية ، ولكن لما لاحظوا الوحدة التي تجمع بين المسلمين ، ولّما أدركوا ان الاسلام يدعو الى العمل والبذل والابتكار والمساهمة في استثمار نعم الله الظاهرة والباطنة بطريقة تختلف اختلافا جذريا عن طريقة اليهود الأنانية ، شرعوا في الدس والتشكيك واثارة الأحقاد . فقد ذكر ابن اسحاق أن شاس بن قيس وكان شيخا قد عسا (اسن) عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم ، قد مرّ على نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملابني قيلة بهذه البلاد . لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شابا من يهود كان معهم فقال : اعمد إليهم فاجْلِسْ معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وانشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار[1] .

لقد كان شاس بن قيس يمني النفس بأن يجد في الوافدين الجدد على المدينة عنصرا من عناصر القوة بالنسبة إليه . لم ينظر اليهم على أنهم يشتركون معه في توحيد الله ونبذ الأوثان والتوجه بالشكر والثناء والعبادة إلى الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد . لم ينظر اليهم بهذا المنظار ، ذلك ان نشر التوحيد لا يهمه وعبادة الأوثان لا تقلقه . المهم بالنسبة إليه ان يجد من يعمل بثمن زهيد في حقوله ومن يقترض بفائض مجحف أمواله ومن ينصره بدون قيد أو شرط في خصوماته .

ولما أدرك هذا الشيخ أن عهدا جديدا قد بدأ في المدينة المنورة وان الاسلام قد وحّد قلوب معتنقيه وأغلق الباب امام تلاعب اليهود وأفسد عليهم سياستهم لجأ الى طريقة فيها دسّ واثارة .

ان هذه الطريقة لم تكن غريبة على اليهود وأحبارهم . فالأخيرون قد سلكوا طريق التعنت

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٥٥٥

وإلباس الحق بالباطل . فكانوا يتظاهرون بمحاورة الرسول صلى الله عليه وسلم وسؤاله لاثارة بعض القضايا التي تولد في بعض النفوس قلقا ذهنيا وشكّا سلبيا وقد تشغل المسلمين عن عملهم اليومي الذى يسعون من ورائه الى ان يكونوا خير أمة أخرجت للناس .

وهكذا يستطيع الباحث ان يدرك نوعية هذه الأسئلة التي كانت تصدر عن اليهود الذين تأكدوا من أنهم ارتكبوا بمهادنة الاسلام مهادنة مكنته من ان يصبح قوة تهدّد وجودهم بالمدينة ويصعب عليهم محاربته بطريقة مكشوفة . قال ابن اسحاق : وكان أحبار يهود الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل . فكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه إلاّ قليلا من مسائل الحرام والحلال كان المسلمون يسألون عنها .[1]

أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ اليهود يريدون بعث الضغائن ونشر الحقد والجدل العقيم بين المسلمين ، كما أدرك انهم يستخدمون لبلوغ مآربهم رصيدهم المعرفي المتمثل في التوراة التي ما أتى الاسلام ليشكك فيها ، وانما ليخلص أحكامها من الزيغ والتحريف . ولذلك أمر الصحابة بأن يقفوا موقفا حذرا مما ينقله اليهم اليهود ، وأن يمسكوا عن التصديق والتكذيب ، فقد عقد البخارى بابا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عنون له : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » . وخرج فيه حديث أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل اليكم (الآية)[2] واستنتج بعض العلماء من هذا الحديث ومن أحاديث اخرى ، تتفق معه في النهي عن الأخذ من اليهود[3] ، ومن بعض الآيات القرآنية المطابقة له في المَعْنى[4]

---

(١) ابن هشام : سيرة ١ /٣٥٨

(٢) خ . ٩٦ الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب شيء .
انظر أيضا ٦٥ تفسير سورة البقرة باب قولوا آمنا بالله وما انزل الينا .

(٣) اخرج الامام احمد بسنده عن جابر بن عبد الله ان عمر بن الخطاب اتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب اصابه من بعض اهل الكتاب فقرأه عليه فغضب فقال : امتهوكون فيها يا ابن الخطاب (الحديث) المسند ٣/ ٣٨٧ .
اخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما انه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون اهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم احدث الأخبار (الحديث) ٥٢ الشهادات ب ٢٩ : لا يسأل اهل الشرك عن الشهادة وغيرها .

(٤) من هذه الآيات قول الله : ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن (الآية) ٢٩ العنكبوت ٤٦

أن الحوار مع اليهود والأخذ عنهم غير مسموح به في الشريعة الاسلامية في القضايا التي لم يتعرض لها القرآن الكريم والسنة النبوية ، فقد يكون ما يخبرون به المسلمين صدقا فيأثم هؤلاء إن هم كذبوهم ، أو يكون كذبا فيرتكبون ذنبا ان هم صدّقوهم وآمنوا بما أخبروهم به . ولكنّ تدبّر ما جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية في هذه القضية يؤدى الى بعض الاستنتاجات منها :

١ ـ ان النهي عن محاورة اليهود والأخذ عنهم مقيد ، فلا يكون الا في القضايا التي سكت عنها القرآن الكريم والسنة النبوية . فما جاء عنهم مسايرا للقرآن والسنة يمكن للمرء ان يتناوله معهم بالبحث . وكذلك ما خالفوا فيه أحد الاصلين فالواجب يدعو إلى محاورتهم لرد ما أولوه تأويلا فاسدا أو انتحلوه أو كتموه . فقد ذكر ابن حجر أن الامام الشافعي قد نبّه الى انه لم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه[١] .

٢ ـ تحتاج موافقة اليهود أو تكذيبهم الى أدلة نقليه وعقليه وهذه الاخيرة لا تقام أحيانا الا بواسطة الحوار . فالدين الاسلامي يمتاز بشمولية جعلت المعرفة فيه لا تقتصر على أدلته واحكامه وبراهينه وانما تتجاوز ذلك لتشمل التجربة الانسانية والشرائع المنزلة .

فالقرآن الكريم قد أشار في بعض الاحيان الى ضرورة الرجوع الى الأمم السابقة وسؤالها عن بعض القضايا .

قال تعالى « وآسْأَلْ من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون »[٢] فالمقصود حسب بعض المفسرين أن يسأل أممهم وعلماء دينهم وهو كقوله تعالى : « واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » .

قال الفراء مبينا وجه المجاز في الآية : هم انما يخبرونه عن كتب الرسل . فاذا سألهم فكأنه سأل الانبياء عليهم السلام[٣]

ورأى بعضهم أن في الآية تمثيلا لشهرة الخبر وتحققه فسؤال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذين قبله متعذر على الحقيقة ، والمعنى آسْتَقْرِئْ شرائع الرسل وكتبهم واخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة[٤]

---

(١) ابن حجر : فتح البارى ١٣٨/٨

(٢) الزخرف : ٤٥

(٣) انظر : د . محمد السيد حسين الذهبي : الاسرائيليات في التفسير والحديث ص ٦٠

(٤) انظر : التحرير والتنوير ٢٢٢/٢٥

وسواء أخذنا بالتفسير الأول أو الثاني فما ينتج عن العمل بالآية واحد . فالاستقراء يتطلب البحث عن النصوص والاخبار والدخول في حوار مع المكلفين بتطبيقها والسهر عليها . وفي هذا السياق تندرج الاخبار التي تفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استمع لبعض اليهود وهم يتلون التوراة . فقد روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال) « ان الله عز وجل ابتعث نبيه لادخال رجل الجنة . فدخل الكنيسة ، فاذا اليهودى يقرأ عليهم التوراة ، فلما اتوا على صفة النبي صلى الله عليه وسلم أمسكوا . وفي ناحيتها رجل مريض فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالكم أمسكتم ؟ فقال المريض : إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا . ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأمته فقال : هذه صفتك وصفة أمتك أشهد ان لا اله الا الله وأنك رسول الله . [1]

(٣) يبين هذا الحديث ان المدينة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل اخلاء اليهود عنها كان بها دور للعبادة والعلم خاصة باليهود . فقد جاءت لفظة كنيسة في هذا الحديث كما وردت عبارة بيت المدارس في احاديث أخرى[2] . وتفيد هذه العبارة أن اليهود كانوا يتوجهون إلى مكان خاص عند دراسة التوراة .

(٤) إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدخل احيانا هذه الدور ويطلع على ما يدور فيها ويسأل ما استدعى الأمر ذلك .

(٥) كانت هذه الزيارات والاسئلة رافدا من الروافد التي اطلع بواسطتها الرسول صلى الله عليه وسلم على أخبار اليهود وأدرك طرق تعاملهم مع النصوص وتبين له أنّ أخبارهم التي لا تناقض مانزل عليه ولا تعارض الكليات التي قامت عليها احكام الاسلام وتوجيهاته ، يمكن للمسلم أن يسمعها منهم وأن يناقشهم فيها لمزيد من الفهم أو التثبت . وفي هذا السياق يندرج الحديث النبوى المروى عن عبد الله ابن عمرو والذى جاء فيه « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمدا فيتبوأ مقعده من النار » .[3]

(٦)كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك مكانة الحوار في التأثير على النفوس وفي هداية أصحابها إلى نبذ تقليد الضالين والمضلين . لقد علّمه ربه عن طريق الوحي الجلي أنّ بعض

---

(١) حم : مسند ٤١٦/١

(٢) خ ٨٩ الاكراه . الباب الثاني فى بيع المكره ونحوه في الحق وغيره .

(٣) خ : ٦٠ احاديث الأنبياء : باب ٤٣ ما ذكر عن بني اسرائيل ح ٩

الكافرين يتركون ملة آبائهم عندما يتبين لهم عن طريق الحوار صدق النبي المرسل إليهم ، وجرب هو هذه الطريقة مع كفار مكة ومع يهود المدينة فأثمرت خيرا مع البعض من هؤلاء وأولئك ، ولذلك استمر على تطبيقها وحث عليها أصحابه بعد أن بيّن لهم الحدود التي يجب الوقوف عندها . فاذا ما حفّت بالحوار الشبهات ، واذا ما تناول قضايا سكت عنها القرآن الكريم والسنة النبوية وهي مشتركة بين امكانية الصدق والكذب فحرى بالمسلم ان يوقف الحوار وأن يقول « آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[1] .

وهكذا يتضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حاور اليهود كما حاور غيرهم واستمع اليهم وسمح لهم بأن ينشروا ما عندهم من معرفة بل أذن لصحابته بأن ينلقوا أحاديثهم التي تطابق أصل ديانتهم ، ولا تعارض ما جاء به الاسلام . وهكذا احتوت كتب الصحاح والسنن حوارا متنوعا طرفاه الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين من جهة وأحبار اليهود أوعامتهم من جهة أخرى .

والمتتبع لهذا الحوار يلاحظ انه يمكن تقسيمه الى الأنواع الآتية :

أ ـ الحوار العقدي : ويبرز في القضايا المتعلقة بالعقيدة والتي اثارها اليهود ليزرعوا الشك في النفوس .

ب ـ الحوار التشريعي : وتظهر فيه القضايا التي كانت أصلا لحكم تشريعي أو الاحداث التي أظهرت التطابق بين احكام التوراة قبل تحريفها وبين التي جاء بها الاسلام .

ج ـ الحوار الاجتماعي : وهو الذى يهتم ببعض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين المسلمين واليهود .

د ـ الحوار المصيرى : وهو الذى تحدد اثناءه مصير اليهود بالمدينة المنورة خاصة والجزيرة العربية عامة .

وتناول دراستنا هذه النوع الأول راجين من الله تعالى أن ييسر لنا تناول الأنواع الأخرى فى فرص قادمة .

---

(١) ٢٩ العنكبوت ٤٦

الحوار العقدي

لقد مر بنا ان اليهود ادركوا انهم ارتكبوا خطأ بمهادنتهم الرسول صلى الله عليه وسلم عند انتقاله الى المدينة وأن البعض من أعيانهم وأحبارهم نصب له العداوة بغيا وحسدا وضغنا . وانهم سعوا الى الدس والفتنة والجدل عن طريق اثارة القضايا التي توجد في المجتمع قلقا نفسيا وشكا خانقا وصراعا بين المجموعات . وفي هذا السياق تندرج أسئلتهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح وقد ذكر آنفا انهم شرعوا في توجيهها الى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق مشركي مكة وواصلوا ذلك بعد الهجرة . .

أخرج البخارى في كتاب العلم عن شيخه قيس بن حفص قال : حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش سليمان عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خِرَب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه . فمرّ بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه ، لا يجيء بشيء تكرهونه . فقال بعضهم : لنسألنهُ . فقام رجل منهم فقال : « يا أبا القاسم : ما الروح ؟ فسكت : فقلت انه يوحى اليه . فقمت . فلما انجلى عنه فقال : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتوا من العلم الا قليلا . قال الأعمش هكذا قراءتنا [1] .

تخريج الحديث

أورد البخارى هذا الحديث ايضا في التفسير والاعتصام بالكتاب والسنة والتوحيد فذكره ضمن ابواب الأول عند تفسير سورة بني اسرائيل (الاسراء) وعنون له بباب ويسألونك عن الروح . وفي الكتاب الثاني بباب ما يكره من كثرة السؤال . واما في الكتاب الثالث فقد خرجه في بابين متتاليين عنون لاولهما بقوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » ولثانيهما بقوله عز وجل : انما قولنا لشيء اذا اردناه ، وخرج الامام مسلم الحديث في كتاب المنافقين ضمن باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وقوله تعالى : ويسألونك عن الروح وأورده هناك بثلاث روايات واحدة منها مزدوجة السند . وخرج الحديث ايضا الامامان أحمد بن حنبل والترمذى فقد كرره الأول في ثلاثة مواضع من مسند عبد الله بن مسعود وذكره الثاني في كتاب التفسير في الباب الثامن عشر الذى اورد فيه احاديث لتفسير بعض آيات سورة بني اسرائيل وعلق عليه بقوله هذا حديث حسن صحيح وذكر قبله حديث ابن عباس الذى ورد فيه ان قريشا طلبت

---

(١) خ ٢ . العلم ب ٤٧ قول الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلا

من اليهود ان يعطوهم شيئا يسألون عنه الرسول صلى الله عليه وسلم[1] .

خصائص الاسناد

تنتهي كل الأسانيد التي اوردت هذا الحديث الى عبد الله بن مسعود الذى رفعه الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمتتبع لسلاسل الاسناد يلاحظ :

١ ـ اشترك المخرجون في أن راوى الحديث عن ابن مسعود هو علقمة ولم يُضف اليه مسروق الا في روايتين : احداهما للامام احمد والثانية للامام مسلم . واشتركت الروايات في أن الذى اخذه عن علقمه هـو ابراهيم النخعي[2]وعنـه اخذه الاعمش الـذى رواه لكل من عبد الواحد وحفص بن غياث ووكيع وعيسى بن يونس .

وعن هؤلاء رواه كل من قيس بن حفص وعمر بن حفص ومحمد بن عبيد ويحيى بن جعفر وموسى بن اسماعيل الذين حدثوا به الامام البخارى .

والمتتبع لسلاسل البخارى وطرقه يلاحظ :

أ ـ تضم احدى سلاسل اسناد هذا الحديث ستة رجال :[3] ثلاثة منهم كوفيون وبصريان الى جانب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وفي هذه السلسلة ثلاثة من التابعين المتقنين يروى بعضهم عن بعض[4] . وهم علقمة بن قيس النخعي[5] وابراهيم بن يزيد النخعي[6]وسليمان بن مهران الاعمش الكوفي[7] .

---

(١) تقدم في هذا البحث ص ٤

(٢) العيني : عمدة القارىء ٢/١٩٩

(٣) هى السلسلة المتكونة من شيخ البخارى فيس بن حفص وعبد الواحد بن زياد وسليمان بن مهران الاعمش وابراهيم بن يزيد النخعي وعلقمة بن قيس النخعى وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه ج

(٤) العينى : عمدة القارىء ٢/١٩٩

(٥) علقمة بن قيس النخعى ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم روى عن عمر وعثمان وعلى وسعد وحذيفة . من بين الذين رووا عنه ابن اخته ابراهيم بن يزيد النخعى مات بين سنتي ٦١ و٧٣ هـ . تهـ . تهـ ٨/٢٧٦ وما بعدها . تر . ٤٨٤

(٦) ابراهيم بن يزيد النخعى ابو عمران الكوفي الفقيه روى عن خاليه الاسود وعبد الرحمن ابنى يزيد ومسروق وعلقمة ومن الذين رووا عنه الاعمش رأى عائشة رضى الله عنها . كان مفتي أهل الكوفة . مات فى عهد الحجاج بن يوسف (تهـ . تهـ ١/١٧٧ تر ٣٢٥)

(٧) سليمان بن مهران . ابو محمد الكوفي الاعمش . روى عن أنس ولم يثبت له منه سماع . مات ١٤٧ ـ ١٤٨ تهذ . تهـ ١٤/٢٢٢ تر ٣٧٦)

ب ـ تربط صلة الرحم بين راويين من رواة هذا الحديث وهما علقمة بن قيس النخعي وابراهيم بن يزيد النخعي فالثاني ابن اخت للأول .

ج ـ أخذ البخارى الحديث عن شيخين يشتركان في اسم الاب ويختلفان في المصر فاسم والد كل منهما هو حفص . ولكن احدهما وهو عمر بن حفص كوفي[1] وثانيهما وهو قيس بن حفص بصرى[2] وكانا شيخين للبخارى .

د ـ تشتمل احدى سلاسل الاسناد رواية الابناء على الآباء فعمر بن حفص بن غياث قد روى الحديث عن ابيه .

هـ ـ اشترك البخارى ومسلم اشتراكا تاما في احدى سلاسل هذا الحديث فقد صدر الامام مسلم ذكره لطرقه بالسلسلة التي قال فيها عمر بن حفص ثنا ابي ثنا الاعمش ثني ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهذه هي سلسلة اسناد الحديث عند البخارى في كتاب التفسير .

ولم يقتصر الاشتراك على اسماء الرواه بل شمل ايضا طرق الرواية التى جاءت بصيغة حدثنا في ثلاثة مواضع وحدثني في موضع واحد والعنعنة في موضعين .

ومما يلاحظ ان سلسلة اسناد البخارى في كتاب العلم قد وردت بحدثنا في ثلاثة مواضع وبالعنعنة في ثلاثة أخرى ، وجاء اسناده في الاعتصام بحدثنا في موضعين وبالعنعنة في اربعة .

وجاءت احدى روايتي كتاب التوحيد بالعنعنة دون سواها [3] .

٢ ـ يبلغ مجموع عدد الرجال الذين تكونت منهم سلاسل البخارى التى خرجت الحديث ثلاثة عشر رجلا منهم صحابي واحد وثلاثة تابعين واربعة من شيوخ شيوخ البخاري وخمسة من شيوخه . اما رجال مسلم فعددهم اربعة عشر رجلا اشترك مع البخارى في ستة منهم .

٣ ـ جاءت إحدى سلاسل الامام مسلم مطابقة لسلسلة من سلاسل الامام احمد . . وهي التى يستنتج منها ان مسروقا قد اشترك مع علقمة في اخذ الحديث عن عبد الله بن مسعود[4] وتتبع الدارقطني هذه السلسلة مبينا ان اصحاب الاعمش كعبد الله بن زياد

---

(١) عمر بن حفص بن غياث روى عن ابيه روى عنه البخارى ومسلم . مات ٢٢٢ هـ (تهـ . تهـ ٧/ ٤٣٥ تر ٧١٣)

(٢) قيس بن حفص بن القعقاع التميمى روى عن عبد الواحد بن زياد وروى عنه البخارى اثنى عشر حديثا . مات ٢٢٧ (تهـ . تهـ ٨/ ٣٩٠ . تر ٦٩٢)

(٣) خ ٩٧ توحيد ٢٩ باب قول الله تعالى انما قولنا لشيء ح ٤

(٤) م ـ ٥٠ ـ صفات المنافقين واحكامهم (٢٧٩٤) حم ـ ١/ ٤١٠ .

وعيسى بن يونس وحفص بن غياث ووكيع رووا الحديث عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله ، وكان يرمي من وراء ذلك الى التأكيد على ان رواية الحديث عن مسروق تعد شذوذا ذلك ان روايات اصحاب الاعمش المذكورين هي الصواب[1] .

وما ذهب اليه الدارقطني يحتاج الى توقف ذلك أن من العلماء من ذهب الى القول بأن الامام مسلما اورد رواية مسروق متابعة ليبين علة اسنادها[2] . ومنهم من ارجع ذلك الى الصناعة الحديثة التي امتاز بها الامام مسلم والتي وصفها القاضي عياض فقال : ان مسلما ذكر في صحيحه احاديث الحفاظ المتقدمين اولا وجعلها اصولا ، ثم أتبعها باحاديث المستورين المتوسطين في الحفظ والاتقان على سبيل المتابعة والاستشهاد فمراد الامام مسلم من ذكر احاديث هذه الطبقة ذكر علل الأحاديث ، وقد حقق ذلك ضمن ما أتى به في صحيحه من جمع الطرق والاسانيد والاختلاف[3] . وقد يستطيع الباحث ان يستنتج من صنيع مسلم بالنسبة لسلاسل اسناد الحديث الذى نحن بصدده انه اراد ان يقدم لنا نوعين من أنواع سلاسل اسناد الحديث الصحيح فالنوع الأول تنقل سلاسله الحديث الصحيح لذاته وهي التي لا يتطرق اليها الشك في ضبط وعدالة رواتها واتقانهم وما شابهها من شروط الصحة التي اشترطوها والتي لا يناسب المقام تحليلها . أما الثاني فتتفق سلاسلة مع سلاسل النوع الأول في الشروط الاساسية ولكن قد تحف بها النقائص في بعض الجزئيات وهي هنا الشهرة ذلك ان رجال طريق مسروق لم يُتّهم منهم أى واحد غاية ما في الأمر ان اصحاب الاعمش كما قال الدارقطني رووا الحديث عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله . فالرواية عن مسروق صحيحة لغيرها لانها لم تشتهر اشتهار الرواية عن علقمة .

ألفاظ الحديث

ان جمع الفاظ الحديث برواياته التي وقعت الاشارة اليها يمكن من استخراج المعاني الآتية :

(١) مصاحبة عبد الله بن مسعود الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوده الى جانبه طيلة الحوار الذى دار بينه عليه الصلاة والسلام وبين اليهود .

(٢) مرور الرسول صلى الله عليه وسلم بجماعة من اليهود عبر عنها بالنفر تارة وبالقوم اخرى .

---

(١) الدارقطني : الالتزامات والتتبع ٢٣٦

(٢) م . س تعليق المحقق ٢٣٧

(٣) انظر : صيانة صحيح مسلم . ابن الصلاح ٩٠ ـ ٩١

وجاء في رواية ان نفرا من اليهود قد قاموا الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) التأكيد على ان نقاشا قد دار بين اليهود قبل محاورتهم الرسول صلى الله عليه وسلم . فبعضهم كان يرى سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح في حين ذهب شقّ آخر الى خلاف ذلك خوفا من ان يصدر عنه صلى الله عليه وسلم مالا يستجيب لرغائبهم او ما يفضحهم ويجعلهم يندمون على ما قدموا عليه .

وعبر عن هذا الموقف المتخوف بصيغ متعددة منها :ـ لا تسألوه لا يجىء فيه بشيء تكرهونه[١] .

ـ لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهونه في رواية[٢]وانه يسمعكم ما تكرهون في اخرى[٣]

ـ لا يستقبلكم بشيء تكرهونه[٤]

ـ ما رابكم اليه[٥]وقال النووى ما رابكم اليه اى ما دعاكم الى سؤاله او ما شككم فيه حتى احتجتم الى سؤاله او ما دعاكم الى سؤال تخشون سوء عقباه[٦]وقرأها بعضهم بصيغة الفعل الماضي على انها من الريب . وذهب البعض الآخر الى ان اليهود قالوا ما رأبكم بصيغة المصدر وتفيد الاصلاح . واستبعد هذا القول ابن حجر[٧]ورأى الخطابي ان الصواب هو مااربكم اى ما حاجتكم . واستحسن ابن حجر هذه الصورة . وقال انه رأى ما يدعمها في رواية للمسعودى عن الاعمش عند الطبرى[٨] . وأخيرا قال الكرماني هى ما رأيكم اى ما فكركم[٩] .

٤ ـ ذكرت كل الروايات ان الداعين من اليهود الى سؤاله عليه الصلاة والسلام كانت لهم الغلبة ولكنها تفاوتت في التعبير عن مصدر السؤال وصيغته . فذكرت روايات ان واحدا فقط هو الذى سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقام رجل منهم . في حين جاء في أخرى أن الجميع أو بعضه هم مصدر السؤال . فقالوا يا ابا القاسم فسألوه فقام اليه بعضهم اما صيغة السؤال فجاءت انشائية في روايات كقول السائل : يا ابا القاسم ما الروح ، وحدثنا عن الروح ، واخبارية في روايات أخرى فقد روى ان عبد الله بن مسعود قد نقل سؤاله اليهود فقال : فسألوه عن الروح في رواية و« فسأله عن الروح في ثانية » .

---

(١) خ ٢ علم / ٤٧
(٢) خ ٩٦ ـ اعتصام ٣ ح ٩ .
(٣) ت تفسير سورة بنى اسرائيل ١٨ ح ٣١٤١
(٤ + ٥) خ ٦٥ تفسير سورة بني اسرائيل ١٢
(٦) النووى ١٧ / ١٣٧
(٧ ، ٨) ابن حجر ٨/٣٢٤
(٩) الكرماني نقلا عن عمدة القاري ١٩ / ٣٤

٥ ـ أجمعت الروايات على ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجب اليهود على الفور ، إذ مرت فترة زمنية بين صدور السؤال والجواب وتفاوتت الفاظ الروايات في التعبير عما فعله وشعر به عبد الله بن مسعود طيلة هذه الفترة .

جاء في رواية انه عرف ان الرسول صلى الله عليه وسلم يوحى إليه فتأخر عنه فى رواية[١] وقام مقامه في ثانية[٢] واستمر على ذلك حتى صعد الوحي في ثالثة[٣] . والى جانب الروايات التي جاء فيها أن عبد الله بن مسعود كان على ادراك وعلم بنزول الوحي في فترة الصمت هذه ، وردت روايات أخرى جاء فيها ان الصحابى الجليل ظن أنه يوحى إليه[٤] وهناك نوع ثالث من الروايات جاء فيها ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سكت ولم تشر الى الوحي[٥] .

٦ ـ أجمعت الروايات على ان الرسول صلى الله عليه وسلم أجاب عن سؤال اليهود بآية قرآنية اذ تلا على مسامعهم قوله تعالى : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيم من العلم الا قليلا . وجاء في رواية كتاب العلم للبخارى « وما اوتو » مكان « وما أوتيتم » وجاء الحديث بلفظ « وما أوتوا » ايضا في رواية لمسلم .[٦]

وتتبع العلماء قوله الاعمش هذه فتبين لهم ان هذه القراءة ليست في السبعة بل ولا فى المشهور من غيرها وقد اغفلها ابو عبيد في كتاب القرآت له من قراءة الأعمش[٧] ولذلك ذهب بعضهم الى ضرورة اصلاح « اوتوا » باوتيتم في حين تمسك البعض الآخر بتركها على حالها مع التنبيه الى ذلك فلعلها قراءة شاذة

واستدل القاضي عياض على فساد المذهب الاخير بأن القراءة الشاذة لا يحتج بها في شيء فقد نفى الامام الشافعي وجمهور العلماء الاحتجاج بمصحف ابن مسعود[٨] .

وهكذا يتضح ان الاختلاف فى الفاظ الحديث لم يكن اساسيا الا في مسألتين :

---

(١) انظر : خ = تفسير سورة بنى اسرائيل ١٢ ح ١ ـ ٩٦ اعتصام ٣ ح ٩

(٢) خ تفسير سورة بنى اسرائيل ١٢ ح ١

(٣) انظر خ = علم ٤٧ ـ ت : تفسير سورة بني اسرائيل ب ١٨ / ٣١٤١

(٤) خ ٩٧ توحيد ٢٨ (فظنت انه يوحى اليه)

(٥) حم ١ / ٤١٠ (فسألوه عن الروح فسكت ثم تلا هذه الآية)

(٦) مسلم : ٥٠ صفات المنافقين واحكامهم (٤ و ٢٧)

(٧) ابن حجر : ف ١ / ١٨١

(٨) انظر : العيني ٢ / ١٩٩ وما بعدها .

أ ـ المكان الذى التقى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود هل هو حرث المدينة ام خرب المدينة وترجح اغلب الروايات اللفظ الأول .

ب ـ الضمير الذى لحق فعل أتى المبني للمجهول ، هل هو ضمير الخطاب ام ضمير الغائب ورجح العلماء الأول لانه هو المتواتر .

المباحث

قدم الحديث بطرقه المتعددة مادة تسمح للباحث بأن يدرس الجانب النفسي والسلوكي ليهود المدينة وهم يحاورون الرسول صلى الله عليه وسلم : فالجدل الذى دار بين اليهود قبل توجههم بالسؤال عن الروح للرسول صلى الله عليه وسلم يظهر الحيرة التي كان عليها اليهود والخوف الذى انتابهم والجانب التسلطي الكامن في نفوسهم . فهذا البعض من اليهود الذى قال لما مرّ الرسول صلى الله عليه وسلم بهم سلوه عن الروح يعبرعن النزعة العدائية التي تمكنت من نفوس أغلبهم ، لقد شاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يتنقل بينهم ويحيى حياتهم ويتفاعل مع أصحابه الذين هاجروا معه ونصروه وعززوه فتكوّنت منهم أمة وصفها الله تعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس وقال فيها « محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم[1] » لم تقبل نفوس اليهود هذه السلم الاجتماعية وتلكم الطمأنينـة النفسية التي عمت المسلمين وجعلتهم يؤمنون بما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينتابهم الشك والوسواس ، ولا تعترى انفسهم دوافع الضعف والوهن ولا تعرف مجموعة من الأمراض الفتاكة مثل الحسد وشح الأنفس إليهم سبيلا . لقد كان كثير من اليهود يتألم باطنيا من هذه الرابطة التى انشأها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه فجعلهم يتحدون فى السراء والضراء . ويؤمنون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم . لقد أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهم الحسنة والمرجع الذى يعودون اليه كلما وجدوا انفسهم امام قضية من القضايا التي يعسر حلها او اذا ما نشأت بينهم بعض المشاكل اليومية التي لا يخلو منها مجتمع انساني . لقد توجه الله تعالى الى عبادة المؤمنين بالخطاب لفض ما يطرأ بينهم فقال : فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا[2] .

أراد بعض اليهود أن يحل العقد الذى يربط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الابرار وذلك بان يظهر للصحابة ان ما عند محمد صلى الله عليه وسلم من علم قد يتطرق إليه

---

(١) الفتح ٢٩ (٢) النساء ٥٩

الشك ، وقد يخالف ما نزل على غيره من الرسول . ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم صحبة أحد الصحابة الابرار هو عبد الله بن مسعود ، سولت له نفسه ان يوجه سؤالا للرسول صلى الله عليه وسلم عله يجيبه بما هو قابل للشك او بما هو مخالف لما نزل على موسى عليه السلام فينطلق من ذلك ليبرهن للصحابة ان ثقتهم في الرسول صلى الله عليه وسلم ليست في محلها . فسؤال اليهود عن الروح هو سؤال تعجيز وتغليط [1] .

فالروح كما ذكر ذلك المفسرون وشرّاح السنة لفظ مشترك ورد في القرآن الكريم فدل على ما به حياة الاجسام . واذا اضيف الى الله تعالى فهو للملك والتشريف كما استخدم للدلالة على بعض الأمور الخفية كالوحي وأمر النبوة . وأطلق أيضا على بعض الملائكة . وخاصة ملاك الوحي جبريل عليه السلام .

واستخدم فى الأحاديث النبوية للدلالة على روح الانسان او الحيوان التي إذا ما زرعت في الجسد نفخت فيه الحياة كقوله صلى الله عليه وسلم : « من فارق الروح والجسد » كما وردت في أحاديث للدلالة على قضايا غيبية كاضافتها الى الله تعالى « وتقذفهم روح الرحمن » وكورودها للدلالة على ملك الوحي او احد الملائكة . كما فى الحديث سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

ولذلك اختلف المفسرون في تحديد المقصود بالروح في قوله تعالى ويسألونك عن الروح . فقيل ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الانساني ومبدأ حياته [2] . وقيل هو جبريل عليه السلام . وقيل هو ملك من الملائكة سعى بعضهم الى تجسيمه لبيان القدرات العظيمة التي يمتاز بها . وقيل هو ضرب من الملائكة . واستدل القائلونّ بأن مدار السؤال هو غير الروح الحالة بالجسد بأن اليهود انما يسألونه عليه الصلاة والسلام عن أمر لا يعرفه إلّا بالوحي ، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب[3] .

لاشك ان اليهود كانوا يودون ان يتلقوا من الرسول صلى الله عليه وسلم جوابا محددا يتمكنون بواسطته من ان يكذبوه وان يبينوا ان ذلك ليس هو المقصود بالروح وهم يريدون بعملهم ذلك ان ينفض الصحابة من حوله عليه الصلاة والسلام . لقد استمر هذا الأمل يراودهم ويزين لهم سيئات أعمالهم.فهم يستغلون المناسبات لاثارة الصحابة رضى اليه عنهم ولجعلهم يختصمون

---

(١) ابن حجر : فتح البارى ٣٢٥/٨
(٢) الالوسي : روح المعاني ١٥١/١٥
(٣) الألوسي : روح المعاني ١٥١/١٥

علهم يجدون من خلال خصوماتهم منفذا يصلون بفضله الى زرع الشك في بعض المسلمين وجعلهم يتخلون عن التصديق المطلق بصاحب الرسالة .

فقد روى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد ان النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه اكاف تحته قطيفة فدكية وأردف وراءه اسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة بن الحارث ابن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتّى مر في مجلس فيه اخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن ابى بن سلول . وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال : « لا تغبروا علينا . » فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل فدعا الى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن ابى بن سلول ايها المرء لا أحسن من هذا ان كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا[1] . يبين هذا الجزء من الحديث ان سكان المدينة بعد ان حل بها الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يجتمعون ويتناولون بالبحث القضايا التي تهم مجتمعهم ، فالاختلاف العقدى لم يحل بينهم وبين الأمن الاجتماعى وحرية التفكير والقول ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عقد بينهم معاهدة تنظم العلاقات بين الافراد والجماعات . وبذلك استطاع عبد الله بن ابي ابن سلول وغيره ان يجالسوا المؤمنين الصادقين ، وان يثيروا معهم القضايا المتصلة اتصالا وثيقا بالايمان والمعاملات والسلوك وغيرها من القضايا . لم ينه الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة عن مجالسة اهل الكتاب والمشركين ، ولم يطلب منهم ان يقاطعوهم اقتصاديا ، بل تركهم يجتمعون بهم في الأسواق والمنازل ودور العلم . ولكن اغلب اليهود لم يتخلصوا من عقدة التفوق التي اصيبوا بها ولم يقبلوا التعايش بين المجموعات الذى جاء به الاسلام فلم تزدهم الايام الا عداوة لصاحب الرسالة . فعبد الله بن ابى بن سلول اراد ان يظهر بالتخمير على انفه ان يوحي للجالسين وخاصة المسلمين منهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يؤذى غيره بما تثيره دابته من غبار ، ولم يكتف بالاشارة والايحاء ، بل عبر عن ذلك بصريح القول « لا تغبروا علينا » أراد ان يظهر نفسه محاميا على كلّ افراد المجلس وعارفا بالآداب والسلوك ومدافعا عن الفضلية . وأفسد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم تدبيره فنزل من ظهر دابته ودعا الى ربه بالحكمة والموعضة الحسنة وتلا على الجمع الآيات الكريمة التي تشفي الصدور من شحها وتفتح امام العقل ابواب التدبر والمعرفة . ولما شعر ابن سلول ان الرياح سارت بما لا يشتهيه وان

---

(١) خ ٧٩ ـ الاستئذان ـ ب ٢٠ التسليم في مجلس فيه اخلاط من المسلمين والمشركين .

الحكمة النبوية منعته من تحقيق مآربه وبلوغ اهدافه تظاهر باستحسان ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم مع السعي للمرة الثانية الى التشكيك في سلامة الطريقة النبوية من التسلط وسوء اختيار الوقت المناسب والمكان اللائق .

لقد أراد ان يوحي للحاضرين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعتدى على افراد المجلس فلم يحترم لا مسلمهم ولا يهوديهم ولا مشركهم . فالاساءة قد وجهت الى الجميع والألم قد حل بكل الحاضرين والسبب في ذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان ابن سلول يمني النفس وهو يوحي للحاضرين بهذه المعاني ان يرى الشك في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ينتاب بعض المسلمين ويتملك منهم ، فيقرون بما أشار ويصدقون بما قاله فتنقص ثقتهم في النبي الكريم ، فيتركون اتباعه وينفضون من حوله ويعودون الى شركهم والى قبول التفوق اليهودى الذى كان سائدا بالمدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم اليها .

ان غايته هذه لا تختلف كثيرا عن غاية الذين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح . فهما تشتركان في البحث عن منفذ لمقاومة اسباب قوة المسلمين المتمثلة اساسا في الايمان بكل ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم أو يفعله لقد انطلق السائلون عن الروح من قضية تبدو متصلة بالعقيدة ومرتبطة بالمعرفة ليثيروا الشبهات وليبينوا أنهم أعلم من الرسول صلى الله عليه وسلم في حين اتخذ ابن ابي بن سلول من قضية سلوكية منطلقا له ليصل الى نفس الغرض .

لقد كان اليهود يمنون النفس بأن يظهروا للمسلمين انهم اعلم وأوسع أفقا من الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك تراهم يغتنمون الفرص لاظهار تفوقهم المعرفي . فقد أقبل حبر من أحبار اليهود على مجلس من مجالس الرسول صلى الله عليه فقال : إنه اذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على اصبع والارض على اصبع والماء والثرى على اصبع ، والخلائق على اصبع . ثم يهزهن ثم يقول انا الملك انا الملك[1] .

أراد هذا الحبر ان يحدث المسلمين في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وان يبين لهم جانبا من المعرفة التى يمتاز بها احبار اليهود والتي لم ترد عند المسلمين . سعى الى ان يحدثهم عن الغيبيات وعن الامور التي ستجرى يوم القيامة متبعا في ذلك طريقة التجسيم القريبة من المستوى

---

(١) خ = ٩٧ التوحيد ب ٣٢ كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الانبياء وغيرهم

الذهني لافراد الامة العربية في ذلك الوقت . فعل هذا الحبر كل ذلك طمعا في ان يبدو تفوقه على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض المسلمين فيبعث في نفوسهم شكا قد يستغله هو وعشيرته بعد ذلك لتعود اليهم المكانة المرموقة التي كانوا عليها قبل قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه المدينة المنورة . لقد كان اليهود في تلكم الفترة يشعرون بالتفوق المعرفي على الأوس والخزرج وكان هؤلاء يسلمون لهم بذلك . قال بن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : « مما دعانا الى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا لما كنا نسمع من رجال يهود وكنا اهل شرك واصحاب اوثان وكانوا اهل كتاب عندهم علم ليس لنا . »

أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم غاية هذا الحبر وما يرمي اليه من مباحث شكلية لا تساهم في تعميق الحوار وفي الوصول به الى مستوى يمكن المشاركين فيه من معرفة الله تعالى معرفة بعيدة عن الهوى والتجسيم والتعطيل فاكتفى صلى الله عليه وسلم بالضحك .

وأثار ما جاء في آخر رواية البخارى لهذا الحديث مباحث ساهم فيها بعض العلماء كالخطابي والقرطبي وغيرهما اذا توقفوا فيما نسب لابن مسعود من انه قال بعد نقل مقالة الحبر اليهودى « فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه تعجبا وتصديقا لقولهم . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأرضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[١] .

فهذا الجزء من الحديث يفهم منه ان هذا الحبر قدم معلومات اعجبت الرسول صلى الله عليه وسلم ووجدت التصديق والاكبار . لكن ما تلاه صلى الله عليه وسلم لا يفيد ذلك فاستشهاده صلى الله عليه وسلم بهذه الآية المنزلة عليه بمكة دليل على ابطال ما توهمه الحبر ونظراؤه من الجسمية[٢] . وسعى بعض الشراح الى ان يؤولوا الحديث حتى يصبح الضحك غير دال على مدح الحبر أو اظهار معرفته وانما لبيان سلوك اليهود المتمثل في معرفتهم الحقيقية وتأويلهم الألفاظ تأويلا يساعدهم على نشر التجسيم . وفي هذا السياق اراد الخطابي ان يبين ان ذكر الاصابع الوارد في الحديث هو من تخليط اليهود المعروفين بالتشبيه ومن ثم رد الخطابي رواية البخارى التي جاء فيها ـ تصديقا لقوله ـ وكذلك فعل القرطبى فقد رد هذا اللفظ معللا ذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يصدق المحال . قال في المفهم على صحيح مسلم « وضحك النبي صلى الله

---

(١) الزمر ٦٧

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٦٣/٢٤

عليه وسلم انما هو للتعجب من جهل اليهودى ولهذا قرأ عند ذلك وما قدروا الله حق قدره أى ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه فهذه الرواية هي الصحيحة المحققة واما من زاد تصديقا له فليست بشيء فانها من قول الراوى وهي باطلة لأن النبي لا يصدق المحال[1] .

لقد أصبحت معرفة اليهود بعد حلول الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة مشكوكا فيها لذلك فقدوا الكثير من هيبتهم ومناعتهم وأدركوا انه لا نجاة لهم ولا عودة لسيطرتهم على النفوس والأموال الا اذا ما زرعوا الشك في نفوس بعض المسلمين حتى يتخلوا عن الايمان بما يأتي به محمد صلى الله عليه وسلم . ولتحقيق هذا الهدف كان الجدل يحدث بينهم احيانا لمعرفة ما ينتج عن الاسئلة الماكرة التي كانوا يعدونها لا لقائها على الرسول صلى الله عليه وسلم في الوقت المناسب . لقد ذكر حديث عبد الله ابن مسعود ان بعض اليهود كان يخاف من نتيجة سؤاله صلى الله عليه وسلم عن الروح لذلك حذر هؤلاء المتخوفون من ان يأتي الجواب النبوى بمعلومات لا تزيد مكانة اليهود فى المجتمع المدني الا تدهورا . خاف هؤلاء من ان يكون السؤال الموجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم لتعجيزه وتشكيك اصحابه فيه مناسبة تظهر وقوف الوحي الى جانبه وتبرز للمسلمين وغيرهم انه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عنه الا ما ينفع الناس فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال[2]

لقد ذكر الحديث بطرقه المتعددة ان هؤلاء المتخوفين عبروا عن شعورهم . والمتتبع لما صدر عنهم قبل الجواب النبوى وبعده يدرك ان تخوفهم لم يكن تخوف الباحث عن الحقيقة أو المتمسك بها . وانما هو تخوف الاناني الذى يبقى دائما حائرا بين الفعل وعدمه . لم يمنعوا اصحابهم من القاء السؤال ولم ينسحبوا وانما ترصدوا الاحداث وترقبوا الجواب . ولما جاء داحرا للظلم لم يؤمنوا ولم يقولوها صريحة انه مطابق لما عندهم في التوراة ، وإنما ساهموا في الجزء الثاني من الحوار الذى دار بين الرسول وبين مجموعتهم .

فقد ذكرت بعض الروايات ان اليهود قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم لما اجابهم عن سؤالهم عن الروح بقوله تعالى : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا ، نحن مختصون بهذا الخطاب . قال صلى الله عليه وسلم بل نحن وانتم فقالوا : ما اعجب شأنك ساعة تقول : ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا ، فانزلت

---

(١) نقلا عن فتح البارى ١٣ / ٣٤٠ . انظر ايضا : التحرير والتنوير ٢٤ / ٦٣

(٢) ١٣ ـ الرعد ١٧

« ولو أنّما في الأرض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله[1] » . لقد أدرك اليهود الحاضرون المعارضون منهم والمؤيدون لتوجيه السؤال عن الروح ان الجواب النبوى لم يحقق لهم ما كانوا يريدون بل ابرز ان هناك معلومات كثيرة لم يصل بعد الفكر الانساني الى ادراكها وانه توجد معلومات اخرى لا يمكن لهذا الفكر ان يصل اليها ذلك ان طبيعتها تختلف اختلافا جذريا عن تكوينه ، وانها تتطلب قوى لم تتوفر فيه بعد . فالله لم يخلق للانسان اجهزة تمكنه من بلوغها في الدنيا على اقل تقدير ولذلك خاطب الحاضرين بقوله : وما اوتيتم من العلم الا قليلا . ان هذا الخطاب لا يفيد تعجيزا ولا يدعو الى السلبية وانما يبين للانسان انه من الحكمة ان يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية[2] .

فالانسان مطالب بأن يستخدم الاجهزة التي سخرها الله له ليعلم ما فيه صلاحه وصلاح الانسانية وان يسلم بأن ما توصل اليه ناقص بالنسبة لما سيتوصل اليه الانسان في مستقبل الأيام . وان علم الانسانية مهما بلغ من كمال فانه يبقى ناقصا بالنسبة لعلم الله تعالى المخالف لعلم الانسان والخالق اياه . ولكن اليهود سعوا الى التشكيك عن طريق الايحاء والمقارنات الناقصة فقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم كيف تقول ان علمنا ناقص وان ما اوتيناه قليل في حين انك تتلو ان التوراة قد نزلت وفيها حكمة وان الذى اوتى الحكمة قد اوتي خيرا كثيرا . ألا يعد هذا من المتناقضات التي تحكم بالشيء وضده .

وللمرة الثانية يظهر الوحى فساد ادلتهم فقد بيّن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ان التوراة هي تنزيل من الله تعالى . وهي في علمه قليل ، آتاهم بها ما ان تعلموه انتفعوا به ومكنوا عقولهم من المعرفة وحواسهم من استثمار خيرات الله الظاهرة والباطنة . وتلا عليهم قوله تعالى : « ولو ان ما في الأرض من شجرة اقلام (الاية) . اراد اليهود في مناسبات متعددة ان يشككوا فيما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات وخاصة تلك التي تمسهم من قريب او من بعيد ، فقد مر بنا انهم سعوا الى اظهار التناقض فيماتلاه الرسول صلى الله عليه وسلم لما سألوه عن الروح ليعلم الحاضرين وغيرهم ان علم الانسان لا يقارن بعلم الله ، وان الانسان مهما اوتي من علم فانه يبقى فى حاجة إلى مواصلة البحث والمثابرة . ذلك أن العلم الانساني يسعى إلى اكتشاف ما أودعه الله في الكون بجميع عناصره من أسرار تتمثل وظيفة العلم الانساني في الوقوف عليها وادراكها واستخدامها لما يعود عليه بالخير والبركة . ومع ذلك فان ملك الله لا

---

(١) لقمان ٢٧

(٢) ابو السعود ـ تفسير ١٩٢/٥

يعرف النهاية ونعمه لن يستطيع الانسان حصرها أو عدها ولكنـه مطالب بـالبحث عنها وباستثمارها . وهكذا يبقى افق البحث مفتوحا امام الانسان فيسلم بأمرين : يتمثل أولهما في أن علم الله الكلي الأزلي لا يمكن أن يفنى او أن ينتهي ، ومن هنا فان علم الانسان مهما كان فانه لن يستطيع ان يصل الى مستواه . اما ثاني الامرين فيدعو الانسان الى التسليم بأن باب تقدم العلم البشرى وتطوره رهين بما يبذله الفكر وما تحققه الآلة وانه كلما نمت المعرفة ازداد العلم البشرى اتساعا وعمقا وقد يصل الى مراحل تجعله في عصر ما اكثر فهما واستخداما لما اودعه الله في الكائنات ولما حبا به عباده من نعم .

ولكن النظرة الضيقة جعلت اليهود يدّعون انهم محور الوجود وان علمهم هو الحكمة وهو مصدر الخير ولذلك لم يتصوروا كيف ينزل الوحي ليقول لهم « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » وعبروا عن عدم التصور هذا للرسول صلى الله عليه وسلم وسعوا من وراء ذلك الى تشكيك الصحابة رضي الله عنهم في الوحي . والى جانب سؤالهم عن الروح ومناقشتهم للوحي نراهم احيانا يسألون عن ماهية الروح ويتساءلون عن كيفية عذابها ليزيدوا الامور تعقيدا والبحث تشعبا والعقول حيرة . فهم يدركون ان الروح من الأمور الغيبية التي لا يستطيع العقل المجرد ان يبحث فيها دون الرجوع الى النص ، ولذلك اكثر اليهود من السؤال عن الروح بطريقة تعمدوا فيها اثارة الشبهات . فقد أورد الطبرى في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « اخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وانما الروح من الله عز وجل . وضع اليهود هذه الاسئلة على الرسول صلى الله عليه وسلم مترقبين ان يصدر عنه عليه الصلاة والسلام جوابا ينطلقون منه لوضع مجموعة اخرى من الاسئلة حول كيفية حلول الروح في الجسد وخروجها منه وهل يمكن للجسد ان يعذب دون ان تكون الروح حالة به واذا تعذر ذلك فهل يمكن للروح ان تنجو من العذاب المسلط وهي حالة به . واذا ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام ما يفيد ان الروح تعذب فانهم سيثيرون مجموعة من الاسئلة تتعلق هذه المرة بكيفية تعذيب الروح وهي كما نعلم من الله عز وجل . وهكذا يستطيعون ان يشغلوا المسلمين بقضايا شبيهة بتلك التي فرضوها على الفكر المسيحي عندما نشروا فيه قضية ماهية المسيح واتحاد الناسوت باللاهوت ، وما شابهها من قضايا صورية ادت بالمسيحية الى ان تصبح ظلا لبعض الفلسفات اليونانية او الطقوس الهندية .

ولما اجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا . قالوا له « من جاءك بهذا فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم جاءني به جبريل

من عند الله فقالوا : والله ما قاله الا عدو لنا [1] ﴾ .

لما أفسد الجواب النبوى على اليهود المخطط الذى اعدوه واغلق امامهم باب السؤال التشكيكي الذى يجعل العقل تائها والنفس حائرة ويساهم في هدر الطاقات البشرية ، ولما اصابهم من الجواب النبوى ما اصابهم جرحوا جبريل عليه السلام ، فادعوا انه عدوهم وان بينهم وبينه خصومة . فلا يمكن لاخباره ان تكون حجة لديهم . لقد ارادوا ان يطفئوا نور الله ويشككوا في ملاك الوحي ، فأنزل الله تعالى على نبيه قوله : قل من كان عدوا لجبريل فانه نَزّله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين[2] .

ظل اليهود ولا يزالون ينشرون في الناس انهم ابناء الله وأحباؤه وشعبه المختار حباهم بعلم لم يؤته غيرهم وميزهم في هذه الدنيا بأن خلق لهم ما على الارض من نعم ومن بشر . وأعدّ لهم فى الآخرة الثواب الجزيل والجنة الخالدة ما لم يخلقه لغيرهم .

كانت لهم مواقف مع الرسول صلى الله عليه وسلم في سبيل اظهار تفوقهم المعرفي ، ولكنهم عجزوا على بلوغ اهدافهم وتحقيق ما سطروه ، فتوجهوا الى موضوع آخر عسى ان يجيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم جوابا يستطيعون تأويله وتحميله مالا يتحمل فينشرون في الناس أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم أفادهم بأن الله تعالى سوف لن يعذبهم إلا لأيام معدودات لا تزيد عن الاربعين ليلة ، وان هذا دليل على انهم على صواب ومن سواهم على باطل . فقد أخرج الطبرى[3] من طريق عكرمة قال : خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فقالوا : لن ندخل النار إلاّ اربعين ليلة وسيخلفنا اليها قوم آخرون : يعنون محمدا وأصحابه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رؤوسهم : بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد فأنزل الله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده . أم تقولون على الله مالا تعلمون[4] .

بهذا المنهج القويم الذى يعتمد في اساسه على ربط الجزاء الأخروى بالتكليف وبالعمل وبالعدل ، بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ولغيرهم أن البشر سواسية عند الله تعالى

---

(١) الطبرى : جامع البيان ١٠٤/١٥

(٢) البقرة ٩٧

(٣) الطبرى : جامع البيان ٣٠٢/١ ـ ٣٠٣

(٤) البقرة ٨٠

من حيث الخلق والتكليف وان الامتياز بينهم في الجزاء والأجر يقوم أساسا على الايمان ومدى صفائه ، والعمل ودرجة التقوى فيه ، والسلوك وما يتصف به من استقامة وما يحققه للفرد وللمجموعة من طمأنينة وتعاون وتكاتف وتقدم حضارى . فلا أحد يستطيع الجزم في هذه الدنيا بأنه من أصحاب النعيم أو ان مدة بقائه بجهنم لا تتجاوز الاربعين ليلة أو ما شابهها ، ومن يفعل ذلك فانه جاهل يفرض على الله تعالى ما يساير هواه وذلك من علامات الكفر والنفاق ومن كان ذلك شأنه فهو مخلد فى النار .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم عالما بمكر اليهود وبادعائهم الباطل وبسعيهم المستمر الى تشكيك المسلمين في الوحي بالطرق المتنوعة التى قد تصل الى دس السم للرسول صلى الله عليه وسلم حتى يتخلصوا منه . وفي ظنهم انهم يقضون بذلك على الدين الذى شاهدوا أثره في توحيد أهل المدينة ومن هاجر اليهم من مكة . وأدركوا انه لا محالة سيوحد كامل الجزيرة العربية وكل الأقطار والامصار التي سيصل اليها وذلك أمر لا تقبله كبرياؤهم ويناقض مصالحهم وخاصة المادية منها .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم قوة عدواة اليهود للدين ولخاتم النبيين فقد اعلمه الوحي بذلك . قال تعالى : لتجدّن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون[1] .

وفعلا جرب اليهود القضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة السم فدفعوا احدى نسائهم الى ان تقدم له عليه الصلاة والسلام شاة مسمومة . وحمى الله تعالى رسوله الكريم الذى قال فيما رواه عنه أبو هريرة « اجمعوا إلي من كان هاهنا من يهود . فجمعوا له فقال : « إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه ؟ فقالوا : نعم . قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : من أبوكم ؟ قالوا : فلان . فقال : كذبتم ، بل أبوكم فلان . قالوا صدقت . قال : فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم يا ابا القاسم وان كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا . قال لهم : من أهل النار . قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدا . ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم عنه ؟ فقالوا نعم يا ابا القاسم قال : هل جعلتم في هذه الشاة

---

(١) = ٥ المائدة ٨٢

سما ؟ قالوا : نعم . قال : ما حملكم على ذلك . قالوا اردنا ان كنت كاذبا نستريح وان كنت نبيا لم يضرك[1] .

يبيّن هذا الحديث ان اليهود يتعمدون الكذب ويستخدمونه للترفع وهم يعلمون ان الرسول صلى الله عليه وسلم سيفضحهم ويرد قالاتهم فقد جربوا ذلك معه فكذبوا وهو يسمون أباهم الذي ينتسبون اليه ولكنهم لم يتخلوا عن الكذب عندما سُئِلوا عن مصيرهم يوم القيامة . فعقدة التفوق عندهم اقوى من النفس اللوامة ، ومن التفكير المنطقي . لذلك ادعوا باطلا انهم سوف لن يعذبوا الا قليلا وان غيرهم وخاصة خصومهم سوف يحلون محلهم في العذاب ، فتمتلىء بهم جهنم ويبقون خالدين فيها ، ولما سئلوا السؤال الثالث لم يجدوا بدا من قول الحق والاعتراف بأنهم قدموا هذه الشاة المسمومة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم قدموا تبريرا ارادوا به التمويه على العقول والتهرب من المسئولية .

لقد قدموا انفسهم ابطالا يبحثون عن الحقيقة ويستخدمون في سبيل ذلك الحنكة والتجربة . هم يعلمون حسب دعواهم ان الانبياء لا يضرهم السم ، ولا تصل اليهم السهام والأسنة . فالواجب على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة رضي الله عنهم ، بالمفهوم اليهودي ، يقتضي منه ومنهم ان يشكروا اليهود وان يمدحوهم على فعلتهم التي اظهرت عن طريق التجربة ان محمدا صلى الله عليه وسلم نبى الله والتي بينت للمسلمين ولغيرهم ان الله تعالى يعصم الانبياء من الناس فيحميهم من الشرور ويدفع عنهم الآفات .

هكذا قدم يهود خيبر أنفسهم عالمين متدبرين متفوقين ، ولكنهم لم يؤمنوا بالذى تبين لهم صدقه ، ولم يدخلوا في الدين الحنيف . فأثبتوا بذلك انهم كانوا يدبرون ويخططون ويتآمرون ويتفقون فيما بينهم على الجواب الذى يقدمونه اذا ما فشلت خططهم ووقعوا متلبسين بجريمتهم . فقد أوردت بعض روايات حديث الشاة المسمومة ان امرأة من يهود خيبر اهدت للرسول صلى الله عليه وسلم شاة مصلية فتناول منها وتناول منها بشر بن البراء ثم رفع النبي يده ثم قال : إن هذه تخبرني انها مسمومة . فمات بشر بن البراء فأرسل اليها النبى صلى الله عليه وسلم : ما حملك على ما صنعت . فقالت : ان كنت نبيا لم يضرك وان كنت ملكاً ارحت الناس منك[2] .

---

(١) خ ٥٨ الجزية والموادعة : ٧
(٢) دى = المقدمة ١١

فجواب هذه اليهودية لا يختلف كثيرا عن جواب اليهود الذى ذكرته رواية البخارى . والجمع بين الروايتين يثبت ان اليهود خططوا ودبروا وكلفوا امرأة منهم بالتنفيذ ، وقدموا لها الجواب المناسب الذى ظنوا انه ينجيها من العقاب بل لعل البعض من المسلمين يقف الى صفهم ويعترف لهم بالمعرفة والفضل وبعد النظر ، فينسى فعلتهم النكراء واقدامهم على الغدر والخداع ، ويحمد لهم ما وفروه لغير اليهود من دليل يعين على اظهار الحق وانتشار الاسلام . فهم بهذا المفهوم مساهمون مساهمة فعالة في انتصار الحق على الباطل ، وفى تبليغ الرسالة الالهية . ومع ذلك فهم غير مطالبين باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك ان دينهم هو الأصل وان جنسهم لا يكون تابعا . هم يرشدون ويقودون ويهدون ويمكّنون الامم التى لا تستطيع الارتقاء الى مرتبتهم من اتباع الدين الذى يرضونه ويعلمون صدق صاحبه . فهذه الأمم في حاجة الى اليهود والى معرفتهم والى توجيهاتهم حتى لا يقع افرادها فى الضلال وحتى لا يتسلط عليهم المتقولون والمتنبئون . بهذا المنهج التسلطى والجدل التحكمي أراد اليهود ان يبرروا كذبهم وغدرهم واعتداءهم على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته رضي الله عنهم . ولكن الرسول الكريم بين للصحابة خطر اليهود على الدين الاسلامي ، وعلى الأفراد والجماعات المسلمة ، وعلى الفكر الانساني بصفة عامة . فهم يستخدمون شتى الطرق والوسائل لابراز تفوقهم وامتيازهم على العالمين . لقد جادلوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في الحياة الدنيا واستخدموا في جدلهم كلمة الحق ولكنهم ارادوا بها الباطل ، وهم سيفعلون نفس الشيء في الدار الآخرة ، فقد خرج البخارى بسنده عن ابي سعيد الخدرى حديثا طويلا رفعه الى الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلق برؤية البشر الله تعالى يوم القيامة وجاء فيه حوار بين اليهود والملائكة . قال صلى الله عليه وسلم . . . فيدعى اليهود . فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزير ابن الله فيقال لهم : كذبتهم . ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون . فقالوا : عطشنا ، ربنا فاسقنا . فيشار أَلَا تَرِدُون فيحشرون الى النار(١) .

إن هذا الموقف من اليهود يصور المركبات التي تمكنت من انفسهم ، وجعلتهم لا يتخلون عن حب الامتياز حتى وهم يعرضون على الحساب . فقد قدموا انفسهم الى الملائكة على انهم كانوا يختلفون عن البشر المؤمنين الموحدين . فبعبادتهم لابن الله كانوا حسب زعمهم اكثر قربا منه واوسع معرفة اياه من غيرهم .

---

(١) خ ٦٥ تفسير سورة النساء : ٨

ولما ردت زعمهم الملائكة وذكرتهم بأنه تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، لم يتـوبوا ولم يستغفروا ولم يندموا على ما افتروه ، بل طالبوا بما يذهب عنهم العطش ويحميهم من الظمأ . وغاب عنهم أنهم ظلموا انفسهم وان جزاءهم لن يكون الا النار . لم يتعظ اليهود بالأحداث التي وقعت لهم زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يتخلوا عن سعيهم الظهور بمظهر العارفين المتازين الذين لا يدانيهم في العلم احد ولا يستغني عن معارفهم بشر ، ولا تفتح ابواب النبوة لمن سواهم الا اذا سمحوا هم بذلك . لقد ظلت هذه المركبات تسيطر على نفوسهم ، وتملي عليهم تصرفاتهم مع البشر عامة والمسلمين منهم خاصة . فكم من يهودى سعى الى تلوين الاسلام بما يريده ويبتغيه ، وكم من يهودى منى النفس بأن يرى المسلمين يأخذون عنه قصصه وتفسيره لبعض الوقائع وتأويله لبعض الآيات . وكم من يهودى منى النفس بأن يعجز علماء المسلمين باسئلته وملاحظاته . فقد اخرج البخارى بسنده عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودى من أهل الحيرة : اى الاجلين قضى موسى ؟ قلت لا ادرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى اكثرهما واطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل[1] .

فهذا الحديث يصور ثلاثة مواقف وقفها يهوديّ وتابعي وصحابي جليل . اما اليهودى فقد بلغه ان القرآن الكريم قد قص قصة موسى عليه السلام منذ صدور الأمر الفرعونى القاضي بتقتيل ابناء بنى اسرائيل واستحياء نسائهم الى ان بلّغ عليه السلام رسالة ربه وترك امته على الدين الحق الذى ارتضاه لهم ربهم . علم اليهودي هذا الأمر كما علم أنّ القرآن الكريم قد نزه الانبياء والرسل عن الاستمرار على الخطا ، وأدرك الى جانب ذلك ان القرآن الكريم ، قد ذكر في قصة موسى عليه ايسلام اتصاله بشعيب وقول هذا الاخير له لما اراد ان يزوجه ابنته . قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج . فان اتممت عشرا فمن عندك (الآية)[2] .

ولكنه اراد بوضعه السؤال على احد التابعين بلوغ امرين : يتمثل احدهما في بيان جهل المسلمين بقضايا كثيرة ومتعددة فمعرفتهم قليلة بالنسبة لمعرفة اليهود . ومَرَدّ ذلك هو النقص الموجود بالقرآن وهو نقص لا يمكن اكماله والتغلب عليه الا بفضل التوراة .

وهكذا سعى اليهود قديما وحديثا الى التأكيد على ان القرآن في حاجة ماسة الى التوراة . فهو

---

(١) خ الشهادات ٢٨

(٢) ٢٨ ـ القصص ٢٧

قراءة جديدة قام بها محمد صلى الله عليه وسلم حسب دعواهم للتوراة . وهذه القراءة كانت سلبية في بعض الاحيان لذلك هي في حاجة الى اليهود والى أحبارهم .

أما الأمر الثاني الذى منى هذا اليهودى نفسه ببلوغه فيتمثل في تسجيل خطا قد يصدر عن التابعي سعيد بن جبير فيحمله اذاك على التقول والتمحل ، فيقال حينئذ ان اخبار الاسلام هي ترسانة من الأكاذيب والأباطيل التي نشأت منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستمرت في التضخم والتكاثر . فالأيام لم تزدها الا انتشارا . والأحداث لم تستطع ايقافها او الحد منها . بل قدمت لها الظروف المناسبة لتصبح حقائق تبنى عليها الأحكام والتوجيهات واسس السلوك .

أراد هذا اليهودي بسؤاله ان يحقق أحد الأمرين او كليهما ولكن موقف سعيد ابن جبير افسد عليه مخططه وحرمه من تحقيق مأربه . فقد كان موقف المسلم الذى تربى في مدرسة الصحابة الميامين الذين علموا المسلمين ضرورة التثبت في السنة النبوية وخطر تفسير القرآن الكريم بالأدلة العقلية المجردة التي لا تقوم على نص نقلي او برهان مستمد من الثوابت التي اتى بها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

أظهر موقف سعيد بن جبير ان المسلمين في عصر الصحابة رضي الله عنهم وفي اوساط عامة التابعين لم يكونوا يسمحون لانفسهم بالتقول على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد بلغهم عنه عليه الصلاة والسلام قوله من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[1] . كما بلغهم ان القرآن الكريم مهيمن على ما قبله وان به ختم الدين وأكملت نعم الله على عباده الصالحين وان الله تعالى حفظه من التحريف والزيغ وهي أمور لم تتوفر للكتب المتقدمة .

ولذلك لم يتقول هذا التابعى ولم يقل في القرآن برأيه المجرد كما انه لم يسلم لهذا اليهودى بالتفوق فلم يطلب منه افادته بما هن موجود في التوراة اوفى غيرها من كتب اليهود لانه يدرك ان اليهود قد يكذبون وقد يصدقون ، قد يكتمون وقد يبوحون . ألم تصدر عنهم المواقف المتناقضة . ألم يسعوا الى التضليل . فالى جانب ما حكاه القرآن الكريم عن طريقة تعاملهم مع النصوص المنزلة تواترت الاخبار عن كتمهم اخبار التوراة تارة وتبديلها تارة اخرى . فقد روى ان مروان بن الحكم بن العاص قال لبوابه اذهب يا رافع الى ابن عباس فقل لئن كان كلّ امرىء فرح بما أوتي واحب ان يحمد بما لم يفعل[2] معذبا لعذبنا اجمعين ؟ فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه انما دعا

---

(١) خ ٢ علم ٣٨ ح ٢

(٢) اشارة الى قوله تعالى : لا تحسبن الذين يفرحون بما اوتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم . (٣ آل عمران ١٨٨)

النبى صلى الله عليه وسلم يهودا فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه ان قد استحمدوا اليه بما اخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما اوتوا من كتمانهم . ثم قرأ ابن عباس « واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب حتى قوله : يفرحون بما اوتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا[1] .

كان ابن جبير على بينة من المركبات التي تحرك اليهود فلم يجب سائله ولم يطلب منه التوضيح والبيان واكتفى « بلا ادرى » التيي عدها بعض العلماء نصف العلم اذا كانت دافعا للطلب واصلا للبحث ووسيلة للمعرفة المبنية على ما يشبه اليقين . اجاب ابن جبير سائله بلا ادرى وصمم على الذهاب الى حبر الامة الذى دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . وهكذا قدم هذا التابعي الجليل على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وسأله ووجد عنده الجواب المعلل والتأويل المبني على كليات الشريعة واصولها وخاصة ما اتصف به الانبياء والرسل عليهم السلام من انهم يحولون اقوالهم افعالا .

وبهذا تتضح الدوافع التي حركت اليهود فى حوارهم الجدلي مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاذا هي لا تخرج عما ركب فيهم من عقد نفسية جعلتهم يؤمنون بانهم شعب الله المختار وبأنّ معرفتهم لا تدانيها معرفة وان الناس جميعا قد خلقوا ليكونوا في خدمتهم وتحت سلطتهم ، فاذا ما سمحوا لاحد بان يكون ملكا كان ، واذا ما أباحوا له بأن يصير نبيا صار . واذا ما سلموا بصدق شخص او خبر فواجب على الناس ان يصدقوا به وان يعملوا بمقتضاه اذا ما صدر عنهم ما يفيد ذلك . واما الوسائل التي استخدموها لتحقيق دوافعهم فهي كثيرة ومتنوعة بينت لنا الأحاديث التي نقلت حوارهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم جانبا مهما منها . وهو المتمثل في السعي الى السيطرة على ما يتعارض مع مصلحتهم . فالحقيقة في نظرهم متحركة تابعة للاهواء وفى خدمة الأغراض والمنافع . وحتى يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم تمحلهم وانانيتهم ، وحتى يفسد عليهم مخططاتهم كان عليه الصلاة والسلام يتجنب اطالة الحوار الجدلي معهم فيجيبهم بآية بينة او بدليل قاطع . فيسد امامهم باب القيل والقال ، والسؤال الذى فيه مغالطة ، وهو الى جانب ذلك يعمق فى المؤمنين ايمانهم بوحدانية الله تعالى وقدرته وحكمته ولطفه بعباده الذين انعم عليهم نعما ظاهرة وباطنة من اهمها واجلها نعمتا العقل والنبوة . وهكذا حمى الرسول صلى الله عليه وسلم العقيدة الاسلامية من السلبية ومن التحول الى مجموعة

---

(١) خ ٦٥ تفسير آل عمران ١٥ ح ٢

من النظريات المجردة التي لا يمكن تنزيلها الى الواقع العملي او استخدامها لتعديل السلوك البشري . كما لم يترك عليه الصلاة والسلام اليهود ينعمون بفرحة الانتصار . فقد كان يجيبهم بطريقة فيها من الايجاز والاعجاز الشيء الكثير فيظهر تهافت ادلتهم ومخالفتها إلى جانب قوة ادلته ونفاذها الى العقل لما اتسمت به من رفق في القول وبلاغة فى التعبير وارتباط بالحياة وبما جبلت عليه النفس البشرية .